(وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور [48]) E A تتصل هذه الجملة بقوله (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ) لما تضمنته هذه من التعريض بتسلية الرسول صلى ا عليه وسلم على ما لاقاه من قومه كما علمت ويؤذن بهذا الاتصال أن هاتين الجملتين جعلتا آية واحدة هي ثامنة وأربعون في هذه السورة فالمعنى : لا يحزنك إعراضهم عن دعوتك فقد أعرضوا عن نعمتي وعن إنذاري بزيادة الكفر فالجملة معطوفة على جملة (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا) وابتداء الكلام بضمير الجلالة المنفصل مسندا إليه فعل دون أن يقال : وإذا أذقنا الإنسان إلخ مع أن المقصود وصف هذا الإنسان بالبطر بالنعمة وبالكفر عند الشدة لأن المقصود من موقع هذه الجملة هنا تسلية الرسول صلى ا عليه وسلم عن جفاء قومه وإعراضهم فالمعنى : أن معاملتهم ربهم هذه المعاملة تسليك عن معاملتهم إياك على نحو قوله تعالى (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك) ولهذا لا تجد نظائر هذه الجملة في معناها مفتتحا بمثل هذا الضمير لأن موقع تلك النظائر لا تماثل موقع هذه وإن كان معناهما متماثلا فهذه الخصوصية خاصة بهذه الجملة .

ولكن نظم هذه الآية جاء صالحا لإفادة هذا المعنى ولإفادة معنى آخر مقارب له وهو أن يكون هذا حكاية خلق للناس كلهم مرتكز في الجبلة لكن مظاهره متفاوتة بتفاوت أفراده في التخلق بالآداب الدينية فيحمل (الإنسان) في الموضعين على جنس بني آدم ويحمل الفرح على مطلقه المقول عليه بالتشكيك حتى يبلغ مبلغ البطر وتحمل السيئة التي قدمتها أيديهم على مراتب السيئات إلى أن تبلغ مبلغ الإشراك ويحمل وصف (كفور) على ما يشمل اشتقاقه من الكفر بتوحيد ا والكفر بنعمة ا .

ولهذا اختلفت محامل المفسرين للآية . فمنهم من حملها على خصوص الإنسان الكافر با مثل الزمخشري والقرطبي والطيبي ومنهم من حملها على ما يعم أصناف الناس مثل الطبري والبغوي والنسفي وابن كثير . ومنهم من حملها على إرادة المعنيين على أن أولهما هو المقصود والثاني مندرج بالتبع وهذه طريقة البيضاوي وصاحب الكشف ومنهم من عكس وهي طريقة الكواشي في تلخيصه .

وعلى الوجهين فالمراد ب (الإنسان) في الموضع الأول والموضع الثاني معنى واحد وهو تعريف الجنس المراد به الاستغراق أي إذا أذقنا الناس وأن الناس كفورون ويكون استغراقا عرفيا أريد به أكثر جنس الإنسان في ذلك الزمان والمكان لأن أكثر نوع الإنسان يومئذ مشركون

وهذ هو المناسب لقوله (فإن الإنسان كفور) أي شديد الكفر قويه ولقوله (بما قدمت أيديهم) أي من الكفر .

وإنما عدل عن التعبير بالناس إلى التعبير بالإنسان للإيماء إلى أن هذا الخلق المخبر به عنهم هو من أخلاق النوع لا يزيله إلا التخلق بأخلاق الإسلام فالذين لم يسلموا باقون عليه وذلك أدخل في التسلية لأن اسم الإنسان اسم جنس يتضمن أوصاف الجنس المسمى به على تفاوت في ذلك وذلك لغلبة الهوى . وقد تكرر ذلك في القرآن مرارا كقوله (إن الإنسان خلق هلوعا) وقوله (إن الإنسان لربه لكنود) وقوله (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) . وتأكيد الخبر بحرف التأكيد لمناسبة التسلية بأن نزل السامع الذي لا يشك في وقوع هذا الخبر منزلة المتردد في ذلك لاستعظامه إعراضهم عن دعوة الخير فشبه بالمتردد على طريقة المكنية وحرف التأكيد من روادف المشبه به المحذوف .

والإذاقة : مجاز في الإصابة .

والمراد بالرحمة : أثر الرحمة وهو النعمة فالتقدير : وإنا إذا رحمنا الإنسان فأصبناه بنعمة بقرينة مقابلة الرحمة بالسيئة كما قوبلت بالضراء في قوله (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته) في سورة فصلت .

والمراد بالفرح : ما يشمل الفرح المجاوز حد المسرة إلى حد البطر والتجبر على نحو ما استعمل في آيات كثيرة مثل قوله تعالى (إذ قال له قومه لا تفرح إن ا لا يحب الفرحين) لا الفرح الذي في مثل قوله تعالى (فرحين بما آتاهم ا من فضله)